

من سير المحاربين

حياة المازني

للأستاذ محمد محمود حمدان

« قد شئت عن الطوفى جدا . ولكنى ما زلت أمت
إلى طفولتى بيب قوى ، وما انككت أخراى مفودة
بأولاهما »
« المازنى »

- ٥ -

الكهربون الطفرة

كانت سنوات الشباب فى حياة المازنى فترة تجربة نفسية
امتنحن بها . واند طالت به هذه التجربة وخافت نتائجها فى كيانه
وسيرته ، وكان لها أثرها البعيد فيما عدل إليه من أسلوب الحياة
ونهج التفكير

بدأت هذه التجربة النفسية مع مطلع الحرب الكبرى ، حين
أصيب المازنى بعرج فى إحدى ساقيه ؛ « وما كنت سكران

حال لا يكون له سلطان الحكم الباشر ، وإنما يتولى ولا يحكم
ليكون مظهرا من مظاهر هيئة الدولة ومجادتها ، شأنه فى ذلك
شأن الملك فى إنجلترا أو رئيس الجمهورية فى فرنسا

ومعنى هذا أننا لا نريد نظام وياسة الدولة على النحو المتبع
فى إسبانيا أو فى روسيا أو فى يوغلافيا ، فنحن لا نبنينا
دكتاتورية فاشية أو دكتاتورية شيوعية ، بل نريد نظاماً مستقراً
ثابتاً يجنبنا الهزات الانتخابية المترادفة ويحفظ كيان الدولة وهيبتها
وبعد فهذا رأى شخصى بحث أطلع به قراء « الرسالة »

وعلى الكاتب وحده تقع تبعته . وإنا لنجد له مشابه فى صدر
الدولة الإسلامية ، كما نجد له نظائر فى بعض الدول الأوربية
الحديثة . وإنا لنعلم أن المسئولين ما برحوا يبحثون نظام الحكم
المصرى فى المستقبل القريب والبعيد ، ولا ريب فى أنهم سوف
يجمعون الآراء المتضاربة جميعاً فى موضع الاهتمام والنظر

والله ولى التوفيق

نصور باب الله

ولا وقعت من سطح ولا زلت فى قدم ، ولا شئ غير هذا مما
يكسر العظام . ولكننا كانت زوجتى مريضة فأجريت لها عملية
جراحية . وفى صباح اليوم التالى وقعت إلى سريرها وفى يئسها
الدواء ممزوجاً بالماء فى كوب من الزجاج ، وحاولت أن أرفمها
بيسراى ، وكان السرير عالياً وأنا قصير القامة فشبت فسممت
شيئاً بطق فظننت الكوب قد انكسر ، وتلفت أنظر فإذا هو فى
كفى سليم ، فحاولت أن أدور على قدمى لأرى فإذا بساق اليمنى
تخذلتى ولا تحملنى فعلت أن الصوت منها ، ثم تبينت بعد ذلك
أن حق الحرقفة هو الذى انكسر ، وعلجت ثلاثة شهور ، ولكن
العلاج كان فيه بمض الخطأ فأنحرفت عظمة الساق عن استقامتها
فقصرت عن أختها فكان هذا العرج »

عند ذلك تغيرت الدنيا فى عينيه ، وأدركته الشيخوخة فى
عنفوان شبابه ، وغمرته — كما يقول — مرارة كان يحيل إليه أنه
يحسها على لسانه ، وتملكته السوداء والتشاؤم ، البسزم Pessimism
وأصيب من جراء ذلك بالنيراستينيا . ولقد كانت هذه الحادثة
أقسى ما يمكن أن يمتحن به معدن شاب مستوفز تزعات
الإحساس ، متعدد آفاق النفس ؛ يستقبل الحياة بذخيرة من أحلام
المجد والسعادة فتستقبله بطمنة نجلاء من طينات المحنة والبلاء .
فلا جرم ينطوى المازنى على نفسه يعاقر الألم ويستمرى الحرمان ،
سادفا عن الدنيا والناس ومناعم الحياة . ولقد ظل سنوات يجاهد
المقعدة النفسية التى طرأت عليه من هذا العرج وبمعالجتها بالتهوين
والتخفيف ، ولكن الحادثة كانت لا تفتأ تناوده بذكرها الأليمة
أو ذكرها المتجددة وهى بضعة منه لا تفارقه ، فلا يفيد معها
التهوين والتخفيف

ثم كان مدى التجربة ، أو تلك المحنة ، بعد أن وضعت
الحرب أوزارها ، حين عن له أن يترك التعليم ويلقى بنفسه إلى
مترك الصحافة

أغلق المدرسة التى كان يديرها ، قبل أن تتصل أسبابه بالعمل
الدائم فى الصحف ، وجاءت حوادث الثورة الوطنية وما قام فى
أعقابها من الاضطراب وعدم الاستقرار فتركته فترة بغير عمل .
وكانت النيراستينيا كأحد ما تكون . وأحس أنه خليل أن يفقد
أعصابه وتلج عليه وطأة المرض إذ لم يركن إلى الراحة والاستجمام

في زعته التي جنح إليها بقوته كلها فيما نسميه بـ « فلسفة الحياة »
والحق أن المازني كان أقرب ما يكون إلى خصائص
أبطال القصة الروسية ، من طرار سانين وبازاروف ، الذين
يواجهون الحياة بالاستخفاف وقلة البالية ، ويميشون بالقدرية
ويمولون على مفاجآت الغيب وحساب المجهول ، ويجمعون بين
نقائص الطباع الإنسانية ، فلا يزالون أبدا مترددين بين الروحانية
والجسدية ، وبين الزهادة والطموح ، وبين الكليية (٢) المتهاففة
والفرارة الساذجة . وقد عصمت المازني بيئته المحافظة ونشأته
الدينية من أن يتأثر بالناحية الدنيا في تلك الخصائص الروسية ،
ووسمه أن يأخذ عنها أشبه تلك الخصائص به وأقربها إلى طبعه
ومنحاه ، وهي زعة الاستخفاف وقلة البالية . فكانت هذه
الزعرة بعد سلاحه في مواجهة ما تأزمت به نفسه من أحداث تلك
التجربة ، وبقيت إلى آخر أيامه سلاحه في مواجهة الحياة ، وبه
غلبها ولم تغلبه

وكان ما امتحنته به تلك التجربة — من الإصابة بالمرج ،
ثم هجر التعليم والتعطل الذي أعقبه — كان من توفيقات المقادير
التي تم الحكمة فيها على الإنسان قبل أن تبدى صفحاتها من
مستقرها في عالم المجهول

كان المازني قد أدنى على الثلاثين ، وشب عن الطوق جدا
فيا يحس ، ويرتفع ، كما يقول ، « عن كل حدائث ارتقاغا أجلسني
على زبوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء » ، ووقف يستقبل
الكهولة التي طرق بابها قبل أن تطرق بابه ، والتي تزود لها
بزادين من عمل النشأة وعمل التجربة ؛ فليس أقرب إلى الكهولة
والصق بها من يحرم في سنه وميمته قراه من الطفولة والشباب ،
ومن يدركه بلاء التجارب وهو غر لا يفيد منها غير الجهد والمغنا
وقد عرف القارئ كيف ودع المازني طفولته قرا وقطمها
وثبا ، وكيف أكره نفسه على كبح عواطفها الساذجة وكبت
نزطها البريئة في غير رفق أو رحمة . ولا شك أنه ظل منطويا
على هذا الشعور بالحرمان من أسعد فترات الحياة وأنصر جهودها
حتى جر عليه هذا الانطواء أن أصاع شبابه في بيده السلبية
ومهمه التشاؤم ومقارفة العزلة والتوحد وتلق الحياة باحتفال

ومجانبة التكبر ؛ فسافر إلى الإسكندرية ، وفي مأوله أن يوفق
بعد ذلك إلى عمل هناك

ويقول المازني « لم أكد أستقر في الإسكندرية حتى شعرت
بمحمى عصبية ، ثم اتفق أن وجدت مع صديق لي رواية روسية
ترجمت إلى الإنجليزية نساته عنها فأثني عليها ، ولم أكن قد سمعت
قبل ذلك باسم المؤلف فاشتت أن أقرأها واستمرتها منه . وكانت
وصية الأطباء لي إلا أكد خاطري أو أتعب رأسي بالقراءة
أو الكتابة

« قرأت هذه الرواية فلم أكد أفرغ منها حتى رأيتني قد
انقلبت مخلوقا آخر : أعدتني روح بطلها بقوتها وبجراتها على الحياة ،
وبالبساطة في مواجهة ما يقع له فيها ، وباستقامة النظرة وسداد
الاتجاه ، فحقت واستغنت عن الأطباء والمقابر ، وما لبثت أن
كررت إلى ميدان العمل وبني من النشاط والثقة ما يكفي فيلقا
بأسره »

تلك هي قصة سانين « senioe » لمؤلفها الروسي
ميخائيل أرترباشيف (١) . وقد قلها المازني إلى العربية ونشرها
باسم « ابن الطبيعة » (١٩٢٢) أداء لما لها من دين عليه

ومن قراءات المازني في الأدب الروسي في ذلك الحين إلى
جانب سانين ، قصة إيفان تورجنيف الشهورة « الآباء والأبناء
fathers and children » وهي من أند القصص في بابها وأسدقها
تصويرا للطبيعة الروسية في بعض جوانبها ، وقد أصبح اسم بطلها
بازاروف « Bazarov » علما على المذهب الفكري والسياسي
الذي ابتدعه تورجنيف ودعاه باسم النهزم « nihilism » بمعنى
الفوضوية أو المدنية

ويذكر الأستاذ العقاد ما كان لقصة سانين من الإيحاء
والتأثير في نفس المازني فيقول « لست أنسى هزة وجدانه بأفاعيل
سانين مع إنكاره لتلك الحيوانية اللجوج التي مثلها بها مؤلف
القصة .. وأنه كان يردد بعض « لوازم » سانين في كلامه بعد
قراءتها . ويقول العقاد « إن القصة الروسية من أقوى المؤثرات

ميخائيل ميخائيلوفيتش آرترباشيف Mikhail Mikheleofitch Artsibashev
ولد عام ١٨٧٨ ، وبدأ اتجاهه الفني بالرسم المرئية (الكاريكاتير) ثم
تحول إلى كتابة القصة الروائية الكبيرة . واتهم بالثورة وسجن عام ١٩١٢
تعدو سانين أعظم أعماله القصصية وقد أخرجها وهو دون الثلاثين (١٩٠٧)

الموسوس المورور

ثم كانت تلك التجربة النفسية وما طبعته عليه من مواجهة الحياة بالاستخفاف وقلة البالاة ، وكانت معها المعجزة الكبرى في حياة المازنى الذى كان يشرف على الكهولة يومذاك

أشرف على الكهولة ليجد نفسه من جديد أمام طفولته التى زابته ، تماوده بأخص خصائصها فى طابعها القديم ، وإن تكن قد عادت ناضجة واعية أشد تمرساً بالحياة وأكثر فهما وتجربة وليس بالسير تفسير هذا الارتداد أو هذه الرجعة إلى الطفولة ، ولا يحوجنا الأمر فيما نرى إلى استشارة علم النفس التحليلى أو تطابق مناهجه ومقاييسه فيما كتب علماء المحدثون ، فهى ظاهرة طبيعية وليست حدثاً خارقاً أو شذوذاً غير مألوف ... طفل أكرهته الحياة على أن يكتب فى نفسه كل إحساس بالطفولة — على فرط إحساسه بها — وأن يطرح عنه كل ما يمت إليها من دوافع وتزعجات ، فاستقرت طفولته فى أعماقه مكتوبة أو مكروبة على الكبت ، تترقب المناسبة التى تطفرف فيها من قرارها وتلبس إهابها السليب

وقد سنحت هذه المناسبة المرتقبة فى حياة المازنى بتصحيح النظرة إلى الحياة والنقلة من البالاة والاحتفال إلى الاستخفاف وقلة الأكرات ، فماودت طفولته ظهورها وعادت سيرتها ، ولاست بنية الكهل المجرى فيه روح الطفل الغرير

سورتان جد مختلفين : أولاهما صورة شاب يمارض الحياة معارضة الإدلال ، ويشور عليها لأنه يبالها ويحفظها غاية البالاة والاحتفال ، ويتراى فى إهاب أقرب إلى الشيخوخة المنطوية لولا ما يقسم به من ثورة السخط والزراية على الحياة والأحياء والثانية صورة كهل يصدر فى مطالبه وورغائه وفى جده وهزله عن منازع هى منازع الطفولة فى صميمها ، بل تزيدها السن فرط غرارة واندفاع وحماس .. كهل يركب الحياة بالسخرية والاستخفاف ، ويسألها غير مضطر أو منلوب ! أو هو يتلع عن معارضتها لأنه قد ملأ يديه منها ، وكأنه يقول لها بلسان الحال إننى لا أحفلك ولا أبالك منذ الآن ، فسيان أن نلتقى على حرب أو سلام ، وعلى ود أو خصام ، فملى هذا وذلك نحن ملتصقان !

وقد قابل المازنى بين هاتين الصورتين لذيتك المهدين من حياته ، ولم يخف عن نفسه ، ولا عن الناس ، موقع هواه وموضع ميله منهما . ونحن نؤثر أن نقول هنا معالم الصورتين كما خرجتا عنه ، مع تفسيره الذى ارتاح إليه فى تعليق رأيه ؛ فهو يقول :

« الكهولة والشباب عهدان مختلفان فى كل شىء ، ولك أن تقول إنهما يحملان من الإنسان الواحد إنسانين متميزين ، لا يشبه أحدهما صاحبه ، لافى الخبير ولا فى المظهر . فأنا فى كهولتى إنسان جديد من كل وجه ، لا يشبه ذلك الإنسان القديم الذى كان أيام الشباب ، فقد ذهب ذلك الإنسان إلى غير رجعة ، وذهب معه كل ما كان له من خصائص وصفات وسمات ومعارف وتزعجات وآمال وآلام وخاوف ومطامع وشهوات إلى آخر ذلك ، وحل محله هذا الكهل الذى يدلغ إلى الشيخوخة

« ولك أن تقول أيضاً إن الشباب والكهولة معنيان فى النفس . فإن منا من يخطئ معنى الشباب فى عهده المألوف ثم يجده فى غير أوانه . وهذا ما وقع لى ، فما عرفت طعم الشباب ، ولا ركبت به ما يركب الناس به ، لأنى امتحنت فى صدر حياتى وغضونة سنى بما تركنى أحس كأن الدهر كله عمرى . ودارت الأيام وكبرت ، وازددت بالدنيا وبالناس معرفة وبنفسى أيضاً ، فإذا كل شىء يتغير ، التشاؤم انقلب تفاؤلاً واستبشاراً ، والضعف أصبح عطفاً ورقة قلب وحبا للحياة والناس ، وكنت أظننى لن يطول عمرى وأحمد الله على هذا وأسأله فى سرى أن يجعل بالراحة الكبرى وإن كنا لن ندرى بأننا فزنا بها ، فإذا بى واثق أى ساء كون من الممرين جدا ، وإذا بى قد صرت أحرص الناس على حياتى ، بل إذا بى أشعر شعوراً قويا أى رددت شاباً ، وإن كان رأسى قد شاب ولم يبق فيه سواد ، وأذهلتنى هذا الشعور المستشرق عن سنى التى لا تكف عن الارتقاع »

وإذا كان لنا أن نمقب على هذه القابلة الصادقة بشىء ، فهو أن ذيتك المهدين ، فى حياة المازنى وأدبه ، قريب من قريب ، وأن عهد الشباب والثورة ومعارضة الحياة كهمد الكهولة الطفلة المجرية ؛ قوة إحساس وفيض عاطفة وشعور فلم يكن المازنى الشاب ليعاوض الحياة أو يتنكر لها إلا وهو